

الجوانب الجديدة

في حياة عمر بن أبي ربيعة

لقد أسلفنا القول في حب ابن أبي ربيعة وشعره ، وقد مناه للقارئ في صورته التي ألفها الناس في حياته ، وتمثلوها بعد مماته . فلم يبق إلا أن نقف قليلا عند الجوانب الجديدة من حياة ذلك الشاعر الغزل الذي لم يره الناس إلا تتبع النساء .

ولنعهد مرة ثانية ما أشرنا إليه من قبل : فقد قلنا إن كثيرا من حوادثه الغرامية من صنع الخيال ، وقد قبلناه على علاته ، واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهي أولاً علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه ، وأساموا قلوبهم لوحيه ، فأبدعوا في ظلال ذكره ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر ، والهوى الغلاب . وهي ثانياً دليل على أنه كان للمتقدمين ميل إلى القصص الغرامي وحظ من الاجادة فيه . فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هوى هذا الشاعر من حسان النساء .

ومن العجيب أنه لم يلتفت أحد من القدماء ولا المحدثين إلى

حياة هذا الشاعر الجدية ، ولم يخطر ببال باحث منهم أن الدنيا
في أحداثها وتصاريفها وأعاجيبها قد تكون الأُم من أن تسمح لشاعر
بأن يظل عمره يمرح ويلعب في ميادين الحب ، وملاعب الجمال .

لقد عاش ابن أبي ربيعة سبعين سنة ، وقد حدثونا أنه ودّع
لهوّه وهواه بعد الأربعين ، فيأليت شعري كيف قضى الثلاثين الباقية ،
على فرض أنه أمضى أربعين الأولى ناعم القاب ، وادع الروح ؟

ثلاثون سنة بلا لهو ولا عبث ، ولا تذكر ولا التّيع !

هذا والله كثير على شاعر روى شبابه بصهباء الرّضاب ، وقضى
فوق ترائب الملاح ليالي وأياماً كانت كل لحظة فيها خيراً من ألف سنة
مما تعدون !

أصبح أن ابن أبي ربيعة لم يقل كلمة واحدة في بكاء شبابه، والتوجّع من
مشيبه ، وأنه ودّع الشعر وداعاً أبدياً بعد الأربعين ؟ أم كانت له
أقف شعرية لها لونٌ غير ذلك اللون المشرق ، وأن الرواة نسوها
تناسوها لأن هواهم كان يقضى ببقاء تلك الشخصية الجذابة
في مرحها ولهوها لتظل متعة بين نكت السّمَر ، وأطياب الحديث ؟
نحن إذاً لا نعرف شيئاً عن الفصل الأخير من تلك الرواية ،
لأنهم أسدلوا الستار بعد انقضاء الفصل الثاني حين حلف الشاعر

لا يقول بيتاً إلا أعتق رقبة . فلنبحث أكان الفصل الأول الذى مثل
لنا الشاعر وهو يعبث فى مناسك الحج صحيحاً فى مجلته ، أم كان فصلاً
غير محكم الوضع ، ولا متقن التصوير ، أراد واضعه أن يبرز ما فيه
من الجوانب الغرامية ، وأن يغفل الجوانب الجدية ، الحاجة فى
نفس يعقوب ؟ !



أكتب هذا وأنا أذكر كلمة الثريا وقد توصل إليها رسول عمر أن
تعطف عليه ، فقد قالت :

« ابن أبى ربيعة فارغ ونحن فى شغل »

وهي كلمة قرؤها باسمين لأنها كلمة نسائية مألوفة من دبات الحجال ،
فانه إذا فرغ عمر وشغلت الثريا فقد حق لنا أن نرتاب فيما نسب إليه
من الفراغ !

ومن العجيب أن هذا الشاعر الذى اتفق القدماء والمحدثون على
فراغه وبذالته هو صاحب هذا البيت

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

وهو بيت عميق الأثر فى النفوس العربية ، وطالما كان لهباً تقبّس

عزائم الشائرين — وهو كذلك صاحب هذين البيتين :
 ليت همدًا أنجزتنا ما تعد وشفّت أنفسنا مما تجد
 واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد
 والقارىء يعلم أن خصوم البرامكة دسّوا إلى الرشيد من غناه بهذا
 الشعر فثار بالبرامكة ، ومزّقهم كل ممزق ، بفضل رواح عمر بن أبي ربيعة
 الذى ظنوا شعره بردًا وسلامًا ، وفيه لو يعلمون أنفاس السّعير !
 ولقد حدّثونا أن أخاه الحارث كان ينهّاه عن قول الشعر فيأبى أن
 يقبل منه ، وأنه أعطاه ألف دينار ، على ألاّ يقول شعرًا ، فأخذ المال
 وخرج إلى أخواله بأحج وأبين ^(١) مخافة أن يهيجه مقامه بمكة على قول
 الشعر ، فطرب يوما فقال :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن ^(٢)
 واحتلّ أهلك أجيادًا فليس لنا إلاّ التذكر أو حظ من الحزن ^(٣)
 لو أنها أبصرت بالجزع عبرته من أن يغرد قمرى على فن ^(٤)
 إذا رأت غير ما ظنت بصاحبها وأيقنت أن لحجًا ليس من وطنى

(١) لحج وأبين من مخاليف اليمى (٢) سيف البحر ، بكسر السين ، هو ساحله

(٣) أجياد : موضع بمكة (٤) القمرى ، بضم القاف ، ضرب من الحمام ، والأثى

قرية ، والجمع قارى

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية والدمع منها على الخدين ذو سنن^(١)
بالله قولى له فى غير معتبة ماذا أردت بطول المكث فى يمن
إن كنت حاولت دنيا وظفرت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن
وأن القصيدة سارت حتى سمعها أخوه الحارث فقال : هذا والله
شعر عمر ، قد فتك وغدر !

وأنا لا أصدق أن ابن أبى ربيعة ذهب إلى أخواله باليمن ليفر من
نساء الحجاز ، ولا أقبل أن يكون ابن أبى ربيعة قبل الرشوة من أخيه
ليتوب يوماً أو يومين قبل أن يموت !

فلا بد إذا أن يكون قد ذهب إلى اليمن فى شأن من الشئون
الجدية . ولكن ما هو هذا الشأن ؟ نحن لانعرفه لأن الرواة لم يحدثونا
عنه ، إذ كان من هواهم أن يبتزوا هذه القصيدة سبباً طريفاً يضاف
إلى ماله من شهي^٣ الاقاصيص

وقد حدثنا صاحب الأغاني أن مسعدة بن عمرو أخرج عمر ابن
أبى ربيعة إلى اليمن فى أمر عرض له ، وتزوجت الثريا وهو غائب ، فليتنا
نعلم أى غرض هذا الذى أخرج من أجله عمر بن أبى ربيعة إلى اليمن ؟

فقد يكون أنشأ هذه النونية في هذه السفرة ، إن لم يكن ذهب إلى
البحرين مرتين لغرضين مختلفين

على أن صاحب الاغانى ذكر في أخبار جميلة أنها لما قضت حجها
سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا :
لها جميعاً . فقالت : ما كنت لأخلط جداً بهزل ، وأبت أن تجلس
للفناء ، فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان في قلبه حب
لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فأتى خارج ، فعزم جماعة من
الاشراف والشعراء على الخروج ، فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها
وأشرافها من الرجال والنساء ، فلما دخلت منزلها وتفرق الجمع إلى منازلهم
ونزل أهل مكة على اقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين ، فلما مضى
لمقدمها عشرة أيام جلست للفناء ، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إني جالسة
لك ولأصحابك ، وإذا شئت قعد الناس لذلك اليوم ، ففصت الدار
بالاشراف من الرجال والنساء ، فابتدأت جميلة فغنت :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن
فضج القوم من حسن ما سمعوا ، ودمعت عينا عمر حتى جرى
الدمع على ثيابه ولحيته ، وما رأوه كذلك من قبل

وهذه القصة تدلنا على أن ابن أبى ربيعة كان لا يزال يلهو ويتبع

النساء بعد قصيدته التي قالها في اليمن شوقاً إلى الحجاز ، فلم يكن إذاً
بالرجل الذي يقبل الرشوة من أخيه ليودع قرعة عينه في الحياة !



وهناك فرض آخر لتوبة ابن أبي ربيعة ، فقد ذكروا أن عمر ابن
عبد العزيز لما ولي الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبي ربيعة والاحوص
فكتب إلى عامله على المدينة :

« قد عرفت عمر ، والاحوص ، بالخبث والشر ، فاذا أتاك كتابي
هذا فاشدهما واحملهما إليّ »

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه فأقبل على عمر فقال له : هيه
فلم أر كالتجمير منظر ناظرٍ ولا كليا إلى الحج أفلتن ذا هوى
وكم مالى عينيهِ من شيء غيره . إذا راح نحو الجرة البيض كالدمى
فاذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فتى يفلتون ؟ أما والله
لو اهتممت بأمر حجبك لم تنظر إلى شيء غيرك — ثم أمر بنفيه . فقال
يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك . قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله أن
لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبداً ، وأجدد
توبة على يدك . قال . أو تفعل ؟ قال نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه

ولم تقف قصة هذا الشعر عند عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكروا
أيضاً أن سليمان بن عبد الملك حبيج وهو خليفة فأرسل إلى عمر بن
أبي ربيعة فقال له : ألسن القائل :

وكم من قتيل ما يُبَاء به دمٌ ومن غَلِقِ رهنا إذا لَقَّه رِمَى
قال نعم ، فقال : لاجرَم ، والله لا تحضر الحبيج مع الناس هذا
العام ، وأخرجه إلى الطائف ،

أفكان هذا الشعر بعينه شَوْماً على صاحبه إلى هذا الحد :
فيمنع من الحبيج مرة ، وينفى مرة ؟ !

أما أنا فأستبعد ذلك ، وأرجح أن أنصار بني أمية أرادوا أن
يبالغوا في وصف خلفائهم بالحزم والغيرة على الحرمات فصوروا ابن
أبي ربيعة طريداً لعبد الملك بن مروان ^(١) وسليمان بن عبد الملك
وعمر بن عبد العزيز

(١) وفد عمر على عبد الملك فادخل عليه فسأله عن نسبه فانتسب له ؛ فقال :

لأنعم الله بعين عينا تحية السخط اذا التقينا

أنت لأأم لك القائل :

نظرت إليها بالمحصب من منى ولى نظر لولا التخرج عارم
فقلت أشمس أم مصاييح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالم
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ثم قال له : قاتلك الله فإلا أمك ! أما كانت لك في بنات العرب مندوحة عن بنات

وهذا ليس بغريب في بابه : فقد اخترع أشياع عمر بن الخطاب
حكايةً جازت على الناس إلى اليوم حتى ادخلها شاعرنا حافظ بك إبراهيم
في قصيدته العمريّة ، وهي حكاية نصر بن حجاج ، إذ زعموا أن عمر
سمع امرأة تتغنى في هدأة الليل :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
فغضب وطاب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه ، أجمل
ما فيه شعره ، فأمر أن يُخلق لتُتقى فتنته ، ولكنه نظر فاذا هو أفتن
الناس وهو حليق ، فأمر بنفيه من المدينة !

وأنا لأشك في أن هذا من حديث خرافة ، فما كنت لأصدق
أن عمر بن الخطاب يفرغ لهذه السفاسف أو ينفي فتى لا ذنب له إلا
أنه جميل ، وهو يعلم أنه ينقل فتنته إلى غير المدينة من أمصار المسلمين

* * *

عمك ؟ فقاء عمر : بئست والله هذه التحية يا أمير المؤمنين لابن العم على شحط الدار
وتئائي المزار

وله مع عبد الملك موقف آخر أشرنا إليه في المحاضرة الثالثة . وفي كلا الموقفين يتنكر
عبد الملك ويقف من الشاعر موقف المسيطر الغضبان . ولهذا النحو من الحديث دلالة
على حرص أشياع بني أمية في تصوير خلفائهم بصورة الجذ والوقار في معاملة الغزلين
من الشعراء

وقد استقصيت أخبار عمر بن أبي ربيعة لأُحدد ما كان في حياته من الجوانب الجدلية ، فرأيت مثلاً أنه كان يشتغل بالدفاع عن قومه بني مخزوم ، وأنه كان يقارع خصومهم ، وله في ذلك حديثه المشهور يوم نازع اللهبي في المسجد الجامع^(١). ورأيت أيضاً أنه كان حريصاً مسرفاً في الحرص على الاستبداد بالحياة الأدبية : فكان يعارض جميلاً وجريراً والفرزدق والأحوص ومالك بن أسماء ، وهذا نوع من الجد لو دونت أخباره لسكان أمتع وانفع من أخباره في أيام الطواف ورأيت كذلك أنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، وهذه شئون جدها جد ، وهزلها جد ، لو عُنى بها الرواة لأرونا كيف كان يقابل هذا الشاعر مضاعب الحياة

وقد مرت بالقارئ اشارات إلى مواقفه مع جميل والفرزدق ونُصيب وكثير ، وله معهم حديث آخر سيجيء في باب المُلح والفكاهات فلنذكر هنا حديثه مع مالك بن أسماء ، فقد كان مفتوناً بشعره ، وكان يتشوق إليه منذ سمع قوله

ان لى عند كل نفحة بستاً ن من الورد أومن الياسمين
نظرةً والتفاته أتمى أن تكونى حلت فيما يلينا

(٣٠٥)

فلما تلاقيا وتعارفا وتعاشدا قال له عمر : ما أحسن شعرك لولا
أسماء القرى التى تذكرها فيه . قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك :
ان فى الرفقة التى شيعتنا بجويريسما لزين الرفاق
ومثل قولك :

حبذا ليلتى بقل بوتا حيث نُسفي شرابنا ونُغنى
فقال له مالك : هى قرى البلد الذى أنا فيه ، وهو مثل ما تذكره
فى شعرك من أرض بلادك : قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل قولك
حتى المنازل قد دثرن خرابا بين الجوين وبين ركن كسابا
ومثل قولك :

ما على الرسم بالبليين لونية بن رجع السلام أولوا أجابا
وفى هذا الحديث نحو من الجدى فى نقد الشعر ، ونظن أنه كانت
له المجاهبات أدبية فى النقد لم يدونها الرواة إذ صرفوا همهم إلى
حياته الغرامية

قلت إنه تزوج غير مرة ، وكان له بنون وبنات ، فلا ذكر أنى
لم أستطع التثبت من عدد زوجاته ولا أنثائه ، لأن الرواة أغفلوا
الافاضة فى هذا الجانب من حياته الجدية ، فلم يبينوا كيف كان يعامل

زوجاته ، ولا كيف كان يربي أولاده ، ولا كيف كان يتصرف في تمييز
أمواله ، وتقويم عبيده وإمائه ، ولم يعينوا « الحوائج » التي ذكرها
في غير موطن انه كان يعتمد في قضائها على الخلفاء

ومع أن الرواة حدثونا أنه هجر الشعر بعد الأربعين فقد حدثونا
أيضا أنه نظر في الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله
صورة ، فذهب عقله عليها وكلها فلم تجبه ، فقال فيها شعراً جرعت منه
فقليل لها اذكره لزوجك فانه سينكر عليه قوله ، فقالت : كلا والله ،
لا أشكوه إلا إلى الله ، ثم قالت : اللهم ان كان نوءه باسمي ظلماً فاجعله
طعاماً للريح . فاستجيب دعوتها إذ غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل
فاستر بسامة ، فعصفت الريح فخدشه غصن منها فدمى وورم به
ومات من ذلك . والاختلاق ظاهر في هذا الحديث

ومن الرواة من حدث أنه مات في غزوة . والعجيب أن تدون
حوادثه الغرامية بما رأى القارئ من التفصيل ، ولا يتفق الرواة في
حديثهم عن وفاته .

أفراهم أنصفوا يوم رأوا الموت غير خليق بعناية الأحياء .